واجب العمل القومي

كيف يجب ان يكون موقف الشباب الواعي من قضيته القومية؟ كل سؤال اذا أحسن وضعه يتضمن في باطنه الجواب، اذن فلنحاول ان نضع سؤالنا بغاية ما يمكن من الدقة والضبط فنقول: كيف يجب ان يكون موقف الشباب العربي الواعي من قضيته القومية في مرحلتها الحاضرة؟

ونعتقد بأننا على هذه الصورة قد حددنا السؤال او المسألة بأكثر ما يمكن من الدقة، ومن وضعها على هذا الشكل نستخلص جملة نتائج. نحن سمينا هذا الشباب فقلنا عنه الشباب العربي، ووصفناه بالوعي، وطلبنا أن يكون له موقف من قضيته القومية، لا من شيء مجرد عام مبهم هو القضية القومية. لم نطلب منه موقفاً تجاه مسألة فلسفية هي القومية، بل طلبنا منه موقفاً من أمر حيوي ذي اتصال مباشر بحياته وقلنا من قضيته القومية. ولم نترك المسألة عرضة للابهام والتناقض، فحددناها بقولنا من قضيته القومية في مرحلتها الحاضرة.

فالنقطة الاولى، أي ما استنتجناه من قولنا الشباب العربي، هذه النقطة تبين لنا وضع الامة العربية الخاص، اذ نحن لانبحث في الشباب بصورة عامة، في شباب أية أمة من الامم في أي زمن من الازمان، بل نبحث عن شباب أمة معينة في وقت معين. وهذا يعني أننا نعرف الوضع الخاص لهذا الشباب بالنسبة لوضع أمته الخاص ايضاً، أي للفارق بينها وبين غيرها من الامم. فلو أردنا ان نصف هذه الامة وصفاً مجملاً لقلنا انها أمة عظيمة الماضي وهزيلة الحاضر ومجزأة في داخلها تخضع لحكم الاجنبي في اكثر اقطارها، ونتج من ذلك ان هذه الامة تريد ان تتحرر من الاجنبي وان توحد أجزاءها وتنهض من تأخرها لتستطيع تحقيق امكاناتها كلها وتسترجع هكذا رسالتها الخالدة بين الامم.

هذه الامة، الامة العربية التي نبحث الآن عن فئة منها، الشباب، تنظر من جهة الى ماضيها ومن جهة أخرى الى حاضر غيرها، فماضيها مجيد عظيم وحاضر غيرها كذلك. وكما أنها لا تستطيع تجاهل ماضيها وصم سمعها عن ندائه، فهي كذلك لا

تستطيع التعامي عن حاضر غيرها من الامم التي تحيط بها وتؤثر في مصيرها بشتى الطرق.

وكما ان البون شاسع بين هذه الامة وماضيها فكذلك البون شاسع بينها وبين حاضر غيرها من الامم. وهي انما تطلب غاية واحدة تبدو للنظرة الاولى مزدوجة. تطلب ان ترتقي الى ما يساويها بماضيها المجيد وبحاضر الامم الاخرى. . وهكذا يكون تذكرها لماضيها ووعيها لحاضر غيرها حافزاً مزدوجاً لها للنهوض. او نقول: يكون لها من هذا الوعي لحاضر غيرها والتذكر لماضيها حافز وضرورة قاهرة. تذكر الماضي يحفزها، ووعي حاضر الامم الاخرى يريها الضرورة القاهرة الى النهضة ويشعرها بها. وهذا الارتقاء الى مستوى ماضيها وحاضر غيرها هو بالنسبة لذلك البون الكبير لايكون بالنمو او بالتطور الطبيعي، فالشقة واسعة وبعيدة ولا بد من الانقلاب حتى يتحقق الارتقاء العسير.

فشباب هذه الامة اذا اعترفوا بصفتهم الاولى وميزتهم الاولى أي الصفة العربية، اي انتمائهم لهذه الامة، يجابهون بمجرد اعترافهم بهذه الصفة كل المشاكل التي تنتج عن تعريفنا لحاضر الامة العربية وعن وصفنا المجمل لحياتها. فلنأخذ النتيجة التي استخلصناها من الصفة الاولى وهي ان للأمة العربية وضعاً خاصاً يفرقها عن غيرها من الامم الحديثة. ماذا نرى؟

نرى ان الامم الراقية القوية في العالم الحاضر تتقدم دون حاجة الى الانقلاب، فحسبها بين حين وآخر ان تصلح بعض نواحي حياتها، بأن تستبدل بقوانين وأنظمة عتيقة قوانين أخرى اكثر ملاءمة للزمان، وان تستبدل بأشخاص قصرت كفاءتهم او تلوثت نزاهتهم اشخاصاً اكثر جدارة وأنصع صفحة.

هذا ما يجري في الامم الراقية القوية وهذا ما نلمسه ونسمع به يومياً، فإن رقي تلك الامم يجعلها في غنى عن الانقلابات العنيفة. والجسم السليم هو محافظ بطبيعته لا يرجو غير النمو الطبيعي لان فيه تكاملاً لصحته وسعادته، اما الجسم المريض، فالنمو الطبيعي بالنسبة اليه هو استفحال المرض وتفاقم الخطر. فالملاحظة الهامة في هذا البحث هي أن لا يؤخذ الشباب العربي بوهم امكان

مسايرته للامم الراقية، أو أن لا يؤخذ بوهم امكان معيشته كما يعيش الشباب في تلك الامم الراقية، فثمة اختلاف جوهري بين الحالتين. قد يكون الحياد السياسي أو الانقطاع الى شؤون العمل الفردي الخاص أمراً جائزاً بل واجباً عند تلك الامم ولكنه بالنسبة الينا والى حالتنا، اذا نحن أخذنا بوهم الشبه الظاهري وسولت لنا أنفسنا أن نعيش كما يعيش أهل الأمم الراقية، نكون قد جهلنا معنى الطور التاريخي الذي نجتازه. فكون أمم مختلفة تعيش في عصر واحد لايعني أنها في نفس الحالة وأن لها نفس الحاجات. وأعود واكرر بأن الامم الراقية في الغرب تستطيع التقدم دون حاجة للانقلاب، والتفكير الانقلابي فيها يكون شذوذاً مستهجناً ومخالفاً لطبيعة الاشياء، وتبذيراً للقوى في غير طائل، وانحرافاً عن الطريق السوي المنتج، في حين أن التفكير التطوري بالنسبة لحاجتنا، وعندنا، هو الشذوذ المرضي، هو التبذير للقوى، هو الانحراف عن الطريق السوي. فنحن بالنسبة لحالتنا لا نستطيع الا ان نكون انقلابيين نفكر تفكيراً انقلابياً، لان في ذلك وحده محاولة لمداواة المرض وايقافه عند حده، ومحاولة لتغيير كل وضع الجسم المريض وهزه هزاً عنيفاً حتى تتكون لديه حالة جديدة يظفر بها على المرض. فاذا أخذ الشباب بنتيجة ما يطلعون عليه وما يقرأونه من أخبار العالم الراقي، واذا توهموا ان غاية الحياة عندهم هي أن ينصرفوا للشؤون الخاصة والنجاح الفردي والى التفكير الحر المجرد كما هو شأن الشباب في تلك الامم، يكونون قد خانوا امتهم وخانوا انفسهم في آن واحد لأنهم لن يستطيعوا تحقيق ذلك النجاح الفردي والثقافة الحرة والابداع الخاص في امة هذه حالها، وهم علاوة على ذلك يتنكبون عن حمل اعظم مسؤولية واشرفها، مسؤولية جيل قدر عليه ان يحقق هذا الانقلاب التاريخي.

ينتج عن كل ذلك نتيجة اردنا الوصول اليها من الصفة الثانية لتعريف الشباب الواعي، فصفة الوعي هي التي تسمح للشباب بأن يكتشف حقيقة منزلته في امته وفي تاريخها، فاذا قدر الوعي للشباب، عرفوا ان هذه المرحلة التي تجتازها الامة العربية مرحلة ثورية نضالية بمعنى انها تهيئة للرقي، وليست بمرحلة رقي. وهنا يظهر الفرق مرة ثانية بين شباب امتنا وشباب الامم الاخرى.

فشباب هذه الامم الاخرى مكلفون بالرقي لابتهيئته، بمتابعته لا بتوفير شروط ظهوره. وأما الشباب في امتنا، الامة التي تشكو من التأخر ومن التجزئة ومن فقدان الحرية والسيادة، هذا الشباب لم يقدر له ان يستمتع بالرقي وأن يعيش عيشة استقرار ومدنية، ولكن قدره هو قدر جيل محارب، جيل مناضل يهيىء بنضاله الحرية والاستقرار والرقي للاجيال القادمة. والشيء الهام في حياة كل جيل هو:

اولا ـ ان يعي مهمته التاريخية الحقيقية في امته.

ثانياً ـ ان يقوم بها. ولا يفضل جيل جيلاً آخر بنوع المهمة التي قدرت له، بل يفضل الجيل الآخر بقدر وعيه لمهمته، وبقدر تحقيقه لها. ولا يفكر احد منا بأن يفضل جيل العلماء والكتاب والمتفننين الذين ظهروا في عصر المأمون مثلاً بنتيجة ازدهار الحضارة واستقرار الحياة على جيل العرب المجاهدين الذين لم تتوفر لهم الثقافة ولا الابداع الفني والفلسفي والعلمي لكنهم قاموا حق القيام بمهمتهم التاريخية بالنسبة لحياة امتهم، فكانوا بناة مستقبل طويل لها. اذن فليست القيمة في نوع المهمة بل في وعيها وفي حسن تحقيقها والاضطلاع بها. فاذا تبين لنا أن مهمة جيلنا اليوم هي انقلابية نضالية ووعيناها وهيأنا في انفسنا وتفكيرنا وفي شروط حياتنا كل ما يمكن ان يساعدها على التحقق نكون قد ملأنا مكاننا وقمنا بواجبنا. وليس يطلب منا ما هو مطلوب من أبنائنا بعدنا، أي ما يطلب من جيل الابداع في الحياة المتمدنة المستقرة. وكل ما يمكن أن نحلم به وأن نقوم به هو في الحقيقة الابداعُ في النضال، لان النضال لايعني شيئاً سلبياً جافاً بل هو حياة بكل معنى الكلمة، متسع لتحقيق المواهب ولتكامل الفضائل ونمو الحيويات على أوسع شكل.

قلنا ان الامم الراقية تتقدم دون حاجة لانقلاب، ويكفيها بين حين وآخر اصلاح بعض نواحي حياتها، كما يكفي الجسم السليم إن ينتبه بين حين وآخر لمعالجات جزئية وبسيطة ولوقاية نفسه من خطر الامراض، يكفي هذه الامم لتتقدم ان تبدل بين حين وآخر بعض الانظمة والاشخاص، وهذا هو التطور. ولكن حالة كحالتنا لايكفيها التطور بل يؤذيها وتستدعي الانقلاب. ليست المعضلة فيها معضلة انظمة وقوانين امست عتيقة بالية ولا معضلة اشخاص قصرت كفاءاتهم أو اشتبه في اخلاقهم، بل

المعضلة جوهرية وعامة واعمق بكثير من كل تلك المظاهر أي مظاهر القوانين والانظمة والاشخاص. فعندما نقول انقلاب نعني تغيير العقلية والخلق. وهذا لايتم من نفسه ولا يتم بالتطور الطبيعي. وقد قلنا ان الزمن يزيد الصحيح صحة كما يزيد المرض استفحالاً: فاذا كنا نشكو من تشويه قد انتاب جوهر امتنا أو على الاقل انتاب التفكير من اساسه، والخلق في صميمه، فليس تبديل الانظمة والقوانين والاشخاص بمبدل شيئاً في جوهر الحياة.

خلاصة القول في هذا الموضوع هو ان الشباب يجب أولا ان يتذكر صفته الاساسية، وهي انتماؤه لأمة معينة معروفة، وان يعرف صفته الثانية التي أهلته لها ثقافته، وهي صفة الوعي، فبالصفة الاولى يدرك الفارق بينه وبين القسم الآخر من العالم، بينه وبين الامم التي يطمح لبلوغ مستواها، ولن يبلغ مستواها بتقليدها. . . فلا بد لنا من جيل يناضل حتى تتهيأ شروط الرقي التي نماثل بها الامم الاخرى.

وبصفة الوعي ندرك، ان التاريخ أهلنا لهذه المهمة النضالية واننا لم نخلق لنعيش عيشة فردية حرة انعزالية منطوية على النفس، وانما عيشة اعتراف واضح مكين بالصلة التي تربطنا بأمتنا، واعتراف بهذا الدور الذي يقدره علينا التاريخ، فنرضى به طائعين بل فرحين مبتهجين لان قيمة العمل ليست في نوعه بل في اتقانه.

والصفة الثالثة التي بيناها في تعريفنا للشباب بقولنا: كيف يجب ان يكون موقفه من قضيته القومية، الصفة الثالثة هي هذا الموقف النفسي الذي لايجيز للشباب النظر لامتهم كنظرهم لأية أمة أخرى، فكونهم منها يرتب عليهم موقفا نفسيا، شعوريا وفكريا، يختلف كل الاختلاف عن الموقف الذي يمكن ان يقفوه من تاريخ الامم الاخرى وحاضر هذه الامم. فموقفهم من تاريخ أمتهم متصل بحياتهم مباشرة فلا يجوز لهم الحياد ولا التفرج ولا الاستخفاف لانهم مسؤولون عن هذه الصلة التي تربطهم بأمتهم اذ هي الشيء الوحيد الذي يبرر وجودهم ويجعل له معنى.

والصفة الرابعة في تعريفنا هي ان يدركوا قضيتهم القومية في مرحلتها الحاضرة. وعندما ينتبهون لذلك ينقذون أنفسهم من التخبط في الافكار المتناقضة، والآراء المتباينة، ومن نشدان الاعذار المختلفة لتجنب العمل. فنحن لانطلب من الشباب

أن يحددوا موقفا نظريا من قضيتهم القومية في كليتها بدون اعتبار للوقت الحاضر الذي نجتازه، اذ لو سمحنا بهذا الابهام في تحديد الموقف وصرفنا النظر عن أمر الزمان، الزمان الحاضر، لأجاز كل فرد لنفسه ان يتذرع بشتى الآراء فيفسر هذه القضية القومية بتفسيرات مختلفة وبالنتيجة يتعذر الحصول على موقف جدي . . . يجمع أفراد الامة.

اما اذا وضعناه على شكل القضية القومية في الحالة الحاضرة لنحول دون هذه المحاذير، فلا يمكن أن نبحث الانسانية في مرحلتنا القومية الحاضرة، ولايمكن أن نبحث في تقدم العلوم والمخترعات، ولا في أمور غيبية لاهوتية ولا في كل هذه الاشياء التي قد يجوز بحثها لأمم تخلصت وانتهت من دور النضال وتهيئة الرقي، وغدت في مرحلة الترف الفكري وتخمة السلطان والقوة، فيمكنها ان تبحث في شؤون الانسانية وعالم الغد والسلام والنظام وما الى ذلك. في هذا خطر كبير على الشباب اذا أجازوا لأنفسهم هذا الانفلات والتيه في التفكير، ولم يحصروا تفكيرهم وشعورهم بما تقتضيه القومية في المرحلة الحاضرة، فهي مرحلة استجماع للقوى في الداخل، مرحلة تقلص وحصر وتركيز لا مرحلة اشعاع وفيضان، وهي مرحلة اهتمام بالنفس لا مرحلة غيرة على الآخرين.

عام ١٩٤٣